University of Thi-Qar Journal of Humanties Science
Website: jedh.utq.edu.iq Email: utjedh@utq.edu.iq

حجاجية الحوار في كتاب مناظرات في الإمامة

Pilgrimage of dialogue in the book Debates in the Imamate

أ.م.د قصي إبراهيم الحصونة ورود كسار حمود
Asst.Prof. Qusay Ibrahim Al-Hassouna
wrood Kassar Hammood
Wroodkassar@gmail.com

abstract:

The speaker's strategies vary, depending on the goals he envisions from his speech and to be communicated to the recipient of the text, The dialogue strategy was one of the persuasive strategies of persuasion that the recipient uses to communicate what the preacher seeks, so that the important value of dialogue and communication in human life is not hidden, as it is among the original and vital needs Imposed by his social nature and his way of living based on openness and sharing with the other, in order to satisfy his practical and theoretical demands, and to achieve material and moral gratifications for this. From the ancient time, man meant contemplating this activity and turning his attention to understanding his truth and

restricting it in a way that makes it useful and fruitful, so this strategy has its own ways of providing meaning And its impact on its recipients, because it transcends the overall entertaining

key words:

]Dialogue swap Properties of the dialogue /Pilgrims/ /Persuasion[

ملخص البحث :

تتغاير إستراتيجيات المتكلم ، تبعًا لتغاير الأهداف التي يتوخاها من خطابه والمراد توصيلها إلى متلقي النصّ ، وكانت استراتيجية الحوار احدى إستراجيات الإقناع التي يلجأ إليها المتلقي لإيصال ما يسعى له الخطيب ، فلا يخـفى ما يمثله الحوار والتواصل في حياة الإنسان من قيمة تواصلية مهمة، فهو من ضمن الحاجات الأصليـة والحيوية التي تفرضها طبيعته الاجتماعية وطريقة عيشه القائمة على الانفتاح والمشاركــة مع الآخر؛ وذلك لتلبية مطالبه العمليّة والنّظريّة، وتحقيق الإشباعات المادّيّة والمعنويّة لهذا عُني الإنسان منذ القديم بتأمل هذا النشاط وتقليب النظر فيه لفهم حقيقته وتقعيده بصوره تجعلهُ مفيدًا ومثمرًا، لذا لهذه الإستراتيجية طرقها الخاصة في تقديم المعنى وتأثيرها على متلقيها ، لأنها تتجاوز الوظيفة الاجمالية الإمتاعية إلى الإيحائية التأثيرية التي تجسد الافكار وتقرب الرؤى .

توطئة

لا يخـفى ما يمثله الحوار والتواصل في حياة الإنسان من قيمة تواصلية مهمة، فهو من ضمن الحاجات الأصليـة والحيوية التي تفرضها طبيعته الإجتماعية وطريقة عيشه القائمة على الإنفتاح والمشاركــة مع الآخر؛ وذلك لتلبية مطالبه العمليّة والنّظريّة، وتحقيق الإشباعات المادّيّة والمعنويّة[1]. لهذا عُني الإنسان منذ القديم بتأمل هذا

النشاط وتقليب النظر فيه لفهم حقيقته وتقعيده بصوره تجعلهُ مفيدًا ومثمرًا، لذلك أسهمت مختلف الثقافات في هذا الباب، ولاسيما الثقافتين اليونانية والإسلامية في جعل المحادثة والحوار أرضية تقوم عليها علاقة تشارك بين الأفراد والجماعات، بدل الخضوع لنوازع الإكراه والإقصاء والعنف، هذا ما زاد في عناية علماء الفلسفة والمناطقة وعلماء الدين, لتتخذ من الحوار موضوعًا للدرس لمثل هذه النزاعات بهذا الدرس, ولاسيما في العقود الأخيرة كانعكاس لجملة من التحولات في القرن العشرين، وعلى رأسها الثورة التواصليّة التي أصبحت تمثل سمة المجتمع الحديث[2]. فما المقصود بالحوار عمومًا ؟ وكيف يمكن إنجازه بين الأطراف المتخالفة على أفضل وجه ؟.

وقبل الشروع بالمعنى الاصطلاحي سنقف عند الجذر اللغوي لمادة (حور)، فقد نصت الكثير في المعاجم العربية على أنَّه: مأخوذ من حار أي رجع عن الشيء وإلى الشيء، أي المجاوبة، والمحاورة، فتحاوروا، أي راجعوا الكلام فيما بينهم[3].

أمَّا في الأدبيات الحجاجية المعاصرة فقد عُرّف تعريفات كثيرة منها: ((بأنَّه مجال لإبداء الآراء بامتياز وهو بذلك مُتنفّس يجد فيه المتحاورون إمكانيّة لقولِ ما يمكنهم قوله بشأن القضايا الثقافيّة، والسياسيّةِ، والاجتماعية))[4].

فهو خطاب قائم على الجدلِ والمفاوضةِ يهدف إلى الاتفاق, فهم يتجادلون؛ لكي يُسجُل بعضهم نقاطًا على بعض، ويتفاوضون بغية الوصول أو عدم الوصول إلى حلول, أيّ إنَّه فعل قاصد يتجلى في صورة متوالية من الرسائل أو أفعال الكلام يتداولها إثنان أو أكثر من المشاركين، أو هو فعالية لغوية اجتماعية وعقلانية ، غايتها إقناع المعترض العاقل بمقبولية رأي من الآراء, وذلك عبر تقديم جملة من القضايا المثبتة أو النافية لما ورد في هذا الرأي من قضايا.

ويكون الحوار بوجه عام بين طرفين، الأول يسأل والثاني يرد والعكس صحيح أيضًا، ويتعيَّن فيه أن يكون ذا هدف يتعاون الطرفان من أجل تحقيقه، ويلتزمان لأجل ذلك بجملة من الضوابط والمقتضيات. أي إنَّه يسعى إلى تغيير موقفٍ ما, أو أسلوب

أو اعتقاد، فهو يسعى إلى التأثير وهذا ما يومئ إليه الحجاج, فقد أفاد الحوار من جهتين، الأولى: طرق أفكارٍ أو آفاق معرفيّةٍ جديدة، ومن جهةٍ أُخـــرى يُخـــرج المتحـــاورين أو المتتبعين للحوارِ بمردودٍ فكري وتوجيهي مُتقـــدّمٍ عمّا عـــهـــدوه في السابق، ولـــم يكن لهم به عهدٌ من قبل[5]. زد على ذلك هو ((يُساهم في تخفيف الأجواء النفـسيّة لـــدى المتحاورين عندما تتحوّل الساحة الداخليّة عندهم إلى موقعٍ من مواقع اللّقاء على المفاهيم المشتركةِ أو المعانـــي المتقاربةِ فيما يخلق في مشاعـــرهم حالةً حمـــيميّةً تجاه الطرفِ الآخر بالإضافةِ إلى الحالةِ الفكريّة))[6]. وهذا ما هو مـــتأصّل في القرآن الكريم، إذ خَطّه الله سبحانه وتعالى لأنبيائهِ ورسلهِ, وأمَرَهم بالحوار الهادئ, وهو ما يمكـــن أن نلمسه في الآيـةِ الكريمة: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾[7]. وممَّا يتكفله الحوار أيضًا هو طرح الفكرةِ أيّ تقديم العرض في حالةِ عدم وجودِ التحدّيات, ويتولى أمر الدفاع عنها إن وجِدَ لها أعداء وخصوم, وتحدّيات ؛إذ يكون الحوار مجالًا لعرض الحججِ والأدلّةِ.

ولمَّا كان الحوار خطابًا تفاعليًا تداوليًا حجاجيًا إقناعيًا يقوم على تبادل الأدوار الكلاميّة ويبتغي التأثير والإقناع فقد تميز بمساره المتدرج الذي يمر بالعديد من الأطوار بغية الوصول إلى الحل وهي[8]:

1. الطور التنازعي[دعوى]: عن طريق هذا الطور يتم الإعلان عن وجوه حالة تنازع، ويتم بسط الخلاف وتعيين المسألة التي يدور حولها النقاش [أي تحديد الموضوع أو المسألة التي تشكل محور النزاع].
2. الطور الانفتاحي[مدعي /ومعترض]: يتم عبر هذا الطور اتخاذ القرار بحلِّ النزاع بوساطة محادثة موجّهة بقواعد حجاجيّة؛ ولأجل ذلك يقوم أحد الطرفين باتخاذ موقع العارض, أي استعداد [المتكلم / المدعي] لأن يُحاجج من أجـل الدفاع عن وجهة نظره ، في حين يؤدي الطّرف الآخر [المستمع] دور المعترض, وهو ما يعني أنَّه مستعد لمواجهة العارض بصورة منظمة لكي يجبره على الدفاع عن رأيه، فالسير الناجح لهذه المحاورة يقتضي التواضع على معطيات الانطلاق وقواعد المحاورة ، أي

الاتفاق حول الطريقة التي ستتبع في إدارة التنازع وتوجيه المحاورة، ويقوم الطرفان معًا باختيار نمط المحادثة التي سيتم الأخذ به أو على الأقل التصريح بقبولهما الإرادي أن يكونا طرفا في نمط من أنماط المحاورة, أي إنَّ الحوار يسمح بتبادل الأدوار بين المتكلم والمستمع، يقتضي ذلك أن يكون لطرفي الحوار مقامان – كما أسلفنا سابقًا – مقام المتكلم والآخر المستمع، ولكلٍّ منهما وظائف, الأولى: المنتقد، والأخرى: المعتقد, ويمكن أن تتبادل هذه الوظائف بتبادل المقامات.

3. الطور الحجاجي[الحجج]: هذا الطور من المحاور قد يعدُّ هو المحاورة نفسها، وذلك بالنظر إلى دوره الحاسم في حلها, إذ يتصدَّى العارض في هذا الطور للدفاع عن معروضة، أمَّا المعترض فيقوم بالإلحاح في طلب المزيد من الحجج, لا سيما إذا بدا له تقصير من طرف العارض في الوفاء بمهمته [أي تناوب في الأدوار بطريقة متكافئة].

4. الطور الختامي[النتيجة قبول إحدى الإدعاءات]: يتم عبر هذا الطور حلُّ المحاورة، وذلك بأن يقع الاعراض وهذا الاعراض إمَّا عن الرأي المعروض، وإمَّا عن الاعتراض الذي وجه إلى هذا الرأي. فإن كان الاعراض عن الرأي المعروض كان النجاح في المحاورة من نصيب المعترض، وإن كان الرأي عن الاعتراضات الموجهة إلى الرأي المعروض كان النجاح قد حالف العارض، وتنتهي المحاورة في الحالة الأولى – أي الاعراض عن الرأي المعروض تقلد العارض رأيًا معارضًا لرأيه السابق، أو تقويم رأيه وتعديله، أو تقلد رأي محايد، أما في الحالة الثانية – أي الاعراض عن الاعتراضات، فإنَّ المعترض يجد نفسه ملزمًا بوضع لا بديل عنه، وهو قبول وجهة نظر العارض[9].

لذا يمكننا القول إنَّ هذه الأطوار التي يتسلسل بها الحوار ضرورة لازمة للحجاج إذ لا حجاج دونها؛ إذن لكي يحدث حجاج ما أو لكي تخلق جملةٌ ما نتيجةً معيّنة أو ثُلّة من النتائج لابد من ، إستدعاء مجال حجاجي مشترك، وأن يكون مجال الحجاج هذا وقواعده العامة خاضعة لتراتبيّةٍ معينّةٍ تتراوح بين الإثبات والجزم، وصيغ الإثبات والجزم ، وصيغ الإنتفاء والتفنيد [10].

المحور الأول: خواص الحوار

أولًا: الخاصية المباشرة:

لمَّا كانت المناظرة تتحدد بوصفها فعالية حوارية، أساسها التداول حول قضايا خلافية، فإنَّ القول فيها يتوزع ضمن بناء مثنوي، طرفاه مدعٍ ومعترض، أو معتقد ومنتقد، متخذًا الحوار فيه صيغة المواجهة الإقتناعية المباشرة، إذ تتدخل فيه ذاتان متقابلتان ضمن مشهد تخاطبي فعلي[11]. ولكي تتحقق هذه الفاعلية للحوار ينبغي اعتماد الآليات الحجاجية الآتية:

1- تناظرية الخطاب: هذا ما يطلق عليه ب[تكثيف السؤال]المعتمد على تكثيف الأسئلة والأجوبة بين المتناظرين، وهذا ما يومئ إلى حضور الذوات المتفاعلة، فاختراق الآخر يتم عبر مباشرة الاتصال الحي، واشتباكه معه يتم عبر أجوبة وتعقيبات وردود يتوجه بها مباشرة إلى المحاور[12]،إلَّا أنَّه يتم ذلك وفق طريقتين:

أ- التناظر الجزئي للأسئلة: ويراد به أن يقوم السائل بإفراد أسئلته عند الطرح ، إذ إنَّ المستفهم ينشأ سؤالًا واحدًا لكي يسمع جوابه ، ثم يورد ما بعده كذلك حتى يفرغ أسئلته، ما جعلها من أكثر الطرق سهولة من بين الطرق الأخرى لفهم الجواب المرتقب[13], لعلَّ لجوء السائل إلى مثل هذا الأسلوب جاء لتحقيق أمرين ، أحدهما: لبيان شخصية المحاور، وثانيًا : الأنجع في إلزام المحاجج ومنعه من التهرب ، ومن ذلك ما نجده في مناظرة الإمام الباقر (عليه السلام) مع عمر بن عبد العزيز في الخلافة إذ نصت على ما يلي: ((قال إبراهيم بن محمد كاتب بغداد المشهور بإبن أبي عون: قال عمر بن عبد العزيز: قد كلمت سائر الناس أحب ان أكلم الشيعة، فشخص إليه أبو جعفر بن محمد بن علي (عليه السلام) ومعه زرارة بن أعين صاحبهم فقال له محمد (عليه السلام): أخبرني عن مقعدك الذي أقعدته أبإرث من رسول الله ﷺ؟

قال: لا

قال: أفبوصية منه ؟

قال: لا))[14]

ما من شكّ في أن [الحجاج] نشاط يتضمن عدّة اساليب ولكنّ الذي يميِّز هذه الأساليب عن خصائص الخطاب الأخرى هو بالضبط إندراجها ضمن هدف [مُعَقْلِن][15]، بمعنى أن وظيفة الحجاج تبنى على أقوال ، وهذه الأقوال يقع على عاتقها معالجة تجربة ما في إفق نظرٍ مزدوج بين العقل الاستدلالي ،والعقل الإقناعي ، ولو عدنا النظر في المناظرة أعلاه نجد ان محور الادعاء الذي بنيت عليه هو من الأحق بالخلافة بعد رسول اللهﷺ ؟ ، فهنا محل النزاع وعلى ضوؤه شُكلت هذه المحاورة لذا سنعرض فيما يلي وظيفة كل من السائل (المعترض)،والمعلل(المدعي / العارض) التي ينبغي الإلزام بها اثناء المناظرة ،وما يترتب عليهما من احكام تسري عليهما معًا بعدهما متشاركين في النظر ،وصولًا للحقيقة :

السائل / المعترض : [اخبرني عن مقعدك الذي اقعدته أبإرث من رسول الله ﷺ؟]فقد كشف هذا السؤال عن دعوى مسبقة أو عرض من عمر بن عبد العزيز ألا وهو أحق بالخلافة بإجماع الكل نلتمس من قوله: [قد كلمت سائر الناس، وأحب ان اكلم الشيعة] وهذا العرض قد ألقى على عاتقه مهمة الجواب .

المدعي / العارض : لا .

السائل : أفبوصية منه ؟

المدعي :لا .

إذ إنَّ هذه الأطوار الحواريّة من عرضٍ واعتراض وسؤال وتقديم حجج تَمّ بوساطتها الاستدلال الحجاجي ، فما كان من توَظّيفها إلا لتسيير الحجاج ، وإقامةِ الحجج عليه، كما فعلعليه السلام ، ثُمَّ نلاحظ ثمَّة وقفة في الحوار، وفي العادةِ يتوقّف التبادل الكلامي بين المتحاورين غير أنَّ الإمام عليه السلام كسر ذلك وأشرك أحد جلسائهِ في الحوار، وذلك ليؤدّي غرضًا حجاجيًا ليكون شاهدًا على الدعوى ، فبهذا الوقف الذي تخلّل بنية الحوار بين الإمامعليه السلام وزرارة * حول ما أدلى به المدعي بَثّ شُحنة حجاجية إلى الحوار, وهكذا حَتَّى انتهى الحوار وأُغلِقَ بإذعانِ عمر بن عبد العزيز

وتنصّلِهِ من كلِّ ما ادعاه ؛ إذ هدم الإمام عليه السلام بوساطة الحوار كلَّ ما يمكن أن يترتّب عليها من نتائج.

ولعل هدا النوع من الحوار يحلينا إلى نوع من أنواع السفسطة والتي تسمى بسفسطة [عبء التدليل][16]، وهو أنَّ العارض واجب عليه أن يقوم بالمدافعة عن رأيه بالحجج المناسبة، إذ ما طُلب منه ذلك بحيث يصح القول إنَّه يتحمل مسؤولية التدليل على الفكرة التي يعرضها، ومن هنا كان إصطلاح المناطقة ومنظري الحجاج على هذا التحمل بعبء التدليل، فإذا تنصل العارض أو المدعي من هذا العبء يكون قد أرتكب سفسطة عبء التدليل والتي يمكن الاصطلاح عليها بسفسطة التهرب, وهذا ما وقع فيه عمر بن عبد العزيز عندما ادعى أنَّ الجميع متفق على خلافته لكن فيما بعد تخلى عمَّا أدلاه.

ومن ذلك أيضًا يكمن في مناظرة الإمام الصادق عليه السلام مع القاضي ابن أبي ليلى، كيف يحكم الناس, قال عليه السلام ((لابن أبي ليلى: أنت ابن أبي ليلى قاضي المسلمين ؟ فقال: نعم يا ابن رسول الله. فقال: تنزع مالًا من يدي هذا فتعطيه هذا، وتنزع إمرأة من يدي هذا فتعطيها هذا، وتحدُّ هذا, وتحبس هذا ؟ قال: نعم. قال: بماذا تفعل ذلك كلَّه ؟ قال: بكتاب الله. قال: كل شيءٍ تفعله تجده في كتاب الله ؟ قال: لا, قال: فما لم تجده في كتاب الله فمن أين تأخذه ؟ قال: فآخذه عن رسول الله. قال: وكل شيء تجده في كتاب الله وعن رسول الله ﷺ قال: إن لم أجده فيهما أخذه عن أصحاب رسول الله ؟ قال: عن أيَّهم تأخذ ؟ قال عن أبي بكر وعثمان وعلي عليه السلام وطلحة والزبير وعدَّ أصحاب رسول الله ﷺ قال: فكل شيءٍ تأخذه عنهم تجدهم قد اجتمعوا عليه ؟ قال: لا, قال: فإذا اختلفوا بقول من تأخذ منهم ؟ قال: بقول من رأيت أن أخذ منهم فأخذت. قال: ولا تبالي إن تخالف الباقين ؟ قال: لا, قال: هل تخالف عليا فيما بلغك أنه قضى به ؟ قال: ربما خالفته إلى غيره منهم. فسكت أبو عبد الله عليه السلام ساعة ينكت في الأرض, ثم رفع رأسه إليه فقال: يا عبد الرحمن فما تقول يوم القيامة

إن أخذ رسول الله ﷺ بيدك وأوقفك بين يدي الله فقال: يا ربِّي ان هذا قصد غير ماقصدت[17].

إنّ كلّ [علاقة حجاجيّة] تتكون من ثلاثة عناصر يمكن تمثيلها بالمخطط الآتي:

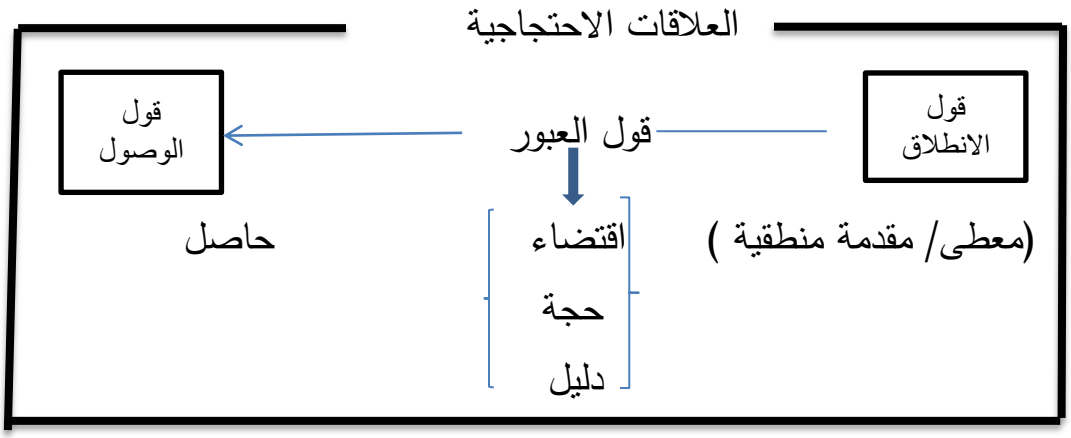

ولما كانت المناظرة تقوم على الحجاج وتستلزم الحوار كان لابد لها أنّ تلتزم بتلك المنطلقات ، ليتمكن أحد محاوريها من حل النزاع وصولًا الى مبتغاهم عبر إيجاد الأدلة الكافية لكليهما ، لذا نجد الامام عليه السلام التجأ الى آلية الإستفهام ؛ لِما له من قدرةٍ على تحضير الخصم واستدراجه واستظهار ما يكنّه ؛ فما السؤال هنا إلَّا وسيلة لإفحام الخصم في المواجهة. لهذا وظَّف الإمام عليه السلام هذه الآليّة الحجاجيّة ، إذ بدأ بالسؤال كما هو واضح من نصّ المناظرة، فقد أخذ الإمام عليه السلام يسأل أبا ليلى الذي هو المحاجَجُ فيُجيب ك[مقدمة منطقية] تسمح له بالولوج في القضية المطروحة ، يكمن في الأقوال الاتية: أ انت ابن أبي ليلى قاضي المسلمين ؟ كل شيء تفعله تجده في كتاب الله فما لم تجده فمن أين تأخذه ؟ هل تخالف عليا فيما بلغك أنه قضى به ؟ إن لم أجده في كتاب الله أخذه عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه واله، عن أيهم تأخذ ؟

مما يحيلنا ذلك إلى سلسلة أخرى من التساؤلات والإستفهامات بأدوات متنوعة (الهمزة، من، ما، أي، أين)، ولكلّ أداة غرضٌ تستفهم عنه ، إذ يستفهم بـ(من) عمّا يُعقل من الأشياء, وأما الاستفهام بـ(ما) فهو عمّا لا يعقل, وأمَّا الأسماء (أين، وأي)، الأولى تسأل عن المكان، والأخرى بحسب ما تُضاف، وعلى الرغم من اختلاف دلالة كلٍّ منهما إلَّا أنَّ الإمام جمع بينهما في هذا النص ووظَّفها عليه السلام؛ ليستثمر ما ينطوي تحتهما من خصوصية وما تؤديانه من أغراض ، ليستدرج بها خصمه ، إذ عن طريق الأسلوب الاستفهامي تمكن من إنتزاع ما يعتقده المحاجَجُ, فابن أبي ليلى الذي زعَم أنَّه قاضي المسلمين أقر بأنَّه كان متوهّمًا بنفسه عندما قال إنَّه عالم بشرائع الدين، وأحكام القرآن. ثُمَّ أردف الإمام عليه السلام بسؤالٍ آخرٍ وهو: (فبأيّ شيء تقضي)؟ فالإمام عليه السلام لا يقصد من هذه الأسئلة جميعها معرفة المجهول وإنّما أراد أن يفتتح المناظرة, ويحدّد الأقطاب المتناظر بها لتبدأ مسيرة الحجاج فيها ، وأجوبة ابن أبي ليلى عنها حتمت عليه أسئلة أخرى للإمام عليه السلام فجوابه بأنَّه يحكم بما بلغه عن الرسول صلى الله عليه وآله وعن أبي بكر وعمر، والقصد من هذا السؤال هو إثارة الخلاف والتقرير أيضًا، إذ أراد الإمام عليه السلام أن يحمل المحاجج على بيان اعتقاده ورأيه، فالإمام عليه السلام وهو يباغت المحاجَجَ, وينتزع منه الجواب كان بمكانة الحجُة التي ألزمهُ بها عليه السلام لذا كانت إجابته بـ(نعم), إنما كانت بمنزلة الاعتراف والإقرار منه، ثم أخذ عليه السلام يستنكر عليه ذلك باستفهام جديد: (كيف تقضي بغير قضاء علي عليه السلام وقد بَلَغَكَ هذا؟)، وهو إستفهام خرج مخرج الإنكار، وهو الإنكار الحقيقي ((الذي يوجّه الى المتلقّي لتوبيخهِ على فعل شيء حسن أو ترك فعل ما كان ينبغي القيام به في نظر المستفهم, وذلك ليرتدع فيرجع عن خطأه))[18].

لعلَّ السبب الذي حمل المتكلم على توظيف هذه المقصديات الإستفهامية كان لإفتتاح المناظرة وإثارة الخلاف بينهما والتقرير والإنكار؛ فضلًا عمَّا تحمله من حمولة حجاجية تحقّق الإقناع، وتثني الخصم عن إدعائه، إذ كانت بمنزلة الحُجج المدعمة لنتيجة معينة وهي أعلمية الإمام عليه السلام بالقضاء من بعد الرسول صلى الله عليه وآله وأحقيته بالإتباع ممّن

خلفه، وهذه النتيجة مضادّة لِما يدعيه ويحكم به هذا المحاجَجُ، فقد دحضها الإمام (عليه السلام) بوساطة توظيفيه لآليّة الاستفهام, وما أَدّته من مقاصد قد أَثبتت حُجّة الإمام (عليه السلام) وبذلك ألغت ما هو مضاد لها، وهذا واضح من موقف المحاجِ ابن أبي ليلى الذي لم يُحر إلى الإمام (عليه السلام) جوابًا، إذ أذعن وسلّم لحُجّة الإمام (عليه السلام) فالطريقة التي صاغ بها المتكلم حواره وتجزئته لأسئلته؛ مكّنت الإمام (عليه السلام) من بيان الشخصية المحاورة التي أدلت بعلمها في أمور الشرع عند محاكمة بعضهم ومفندًا بذلك الهالة الاجتماعية والمعرفية التي تقمصها محاوره وتفنيد ادعائه وإبطال حجته, حتى ظهر عجزه وبان انكساره مصرحًا بقوله: اصفر وجه ابن أبي ليلى حتى عاد مثل الزعفران، ثم قال لي التمس لنفسك زميلا, والله لا أكلمك من رأسي كلمة أبدًا.

إذ إنَّ هذا المنهج كان السَّمة الأبرز التي اتخذها أهل البيت (عليهم السلام) في نظم خطاباتهم؛ لكونها الأنجع في إلزام المُحاجج ومنع تهربه من الإنكار، والأكثر تأثيرًا في الاقناع[19]. وقد يقحم السائل /العارض دعوة الداعي عبر تقنية أخرى الآوهي :

الجواب بالسؤال : إنَّ للكلام أفعالاً، ولكلِّ فعلٍ دور في الكلام, منها ما هو للتَلفّظ بصيغٍ صوتيّة, وتراكيبٍ, ودلالاتٍ محددةٍ وهو الفعل الكلامي, ويترتّب على هذا الفعل أو التلَفّظ تواصل, فهذه الصيغ والتراكيب والدلالات قد أنتجت تواصلًا وتفاعلًا بين أكثر من طرفٍ وهذا دور الفعل التكلّمي، إذن الغاية من الكلام هي التأثير, وهذا ما دعا إليه ديكرو, وقد تَمّ تفصيله في معرض الحديث عن آليات اللّغة, وهذا التأثير هو ما يطمح له الحجاج في شتّى آليّاتهِ, وكدلك الحوار الذي هو مراجعة الكلام يوظّف لكثير من الآليّات القادرة على التواصل والاستدلال والتأثير, ومن ثَمَّ كلّ هذه الآليات تصبّ في مجرى واحدٍ وهو [الحوار] الذي يُنشّط ويُنعش كلَّ هذه العمليات الحجاجيّة[20]. هذا ما جعل الحوار مرتهن بوجود الخلاف بين المتخاطبين، إذن لا بدّ من تبادل الحوار بينهما لِما يمتلكه الأخير من قدرةٍ على إذابةِ هذا الخلاف وتبديده, فإذا حمى وطيسُ الحوار بين أطرافهِ, سيلجأ حتمًا أحدهم ليصرف رأيه عمّا تبنّاه

لضُعفِ حُجّتهِ, أو يصرّ على رأيهِ حَتّى يتبناه مقابلة في الحوار, وبهذا يكون الموقف قد حُسِمَ باتفاق الطرفين . أي إنَّ الحوار يَسد ما يتخلّل الموقف من توتّر, وعدم اتفاق عند مطارحة الآراء بين المتحاورين, وينتهي إلى إشراكهم بها, لِذا يجدر بالحجاج الذي هو خطاب قائم على خلاف أنَّ يتخذ من الحوار نمطًا له لتسيير العملية الحجاجيّة, فالحجاج يقوم على الحوار, وتتبادل الأطراف المتحاورة الخلاف الذي قام الحجاج بشأنهِ بشكل حوار تناوبي تداولي, يتعاون فيه الأطراف للوصول إلى نتيجةٍ, والهدف هو الإقناع، إذن فالحوار نمط من أنماط الحجاج ومسلك من مسالكه.

ولمعرفة عمل الحوار وتحريكه للحجاج نقف على مناظرة الإمام الرضا عليه السلام مع يحيى السمرقندي ((فقال له الرضا عليه السلام: يا يحيى سل عما شئت. فقال: نتكلم في الإمامة كيف ادعيت لمن لم يؤم وتركت من أم ووقع الرضا به ؟ فقال له عليه السلام: يا يحيى أخبرني عمن صدق كاذبا على نفسه أو كذب صادقا على نفسه, أ يكون محقًا مصيبًا أم مبطلًا مخطيًا ؟ فسكت يحيى، وعندما قيل له أجبه، قال: يعفيني أمير المؤمنين من جوابه. فقال المأمون: يا أبا الحسن عرفنا الغرض في هذه المسألة. فقال عليه السلام لا بدَّ ليحيى أن يخبر عن أئمته: أنَّهم كذبوا على أنفسهم أو صدقوا, فإن زعموا أنَّهم كذبوا فلا أمانة, لكذاب، وإن زعم أنَّهم صدقوا فقد قال أولهم: وليتكم ولست بخيركم، وقال تاليه كانت بيعته فلتة فمن عاد لمثلها فاقتلوه، فو الله ما رضي لمن فعل مثل فعلهم إلَّا القتل، فمن لم يكن بخير الناس والخيرية لا تقع إلَّا بنعوت منها: العلم، ومنها الجهاد، ومنها سائر الفضائل وليست فيه ومن كانت بيعته فلتة يجب القتل على من فعل مثلها, كيف يقبل عهد غيره إلى غيره وهذه صورته ؟ ثم يقول على المنبر إن لي شيطانا يعتريني, فإذا مال بي فقوموني، وإذا اخطأت فأرشدوني*... فليسوا أئمة بقولهم إن صدقوا أو كذبوا * فما عند يحيى في هذا الجواب ؟))[21].

بدأ الحوار بتوجيه السمرقندي سؤالًا إلى الإمام, ويبدو من ظاهره أنَّ له غرضًا آخر غير العلم بما يجهل، فكأنَّه يريد أن ينتزع من الإمام عليه السلام وينال منه, إلَّا أنَّ ذكاء وفطن الشخصية المحاورة / الإمام الرضا عليه السلام جعله يقع في فخه، عندما خرق الإمام عليه السلام

القاعدة بإجابته بسؤال عما طرح عليه بادئ حجته (عليه السلام) بنداء يتصدر الخطاب, لما لهذا الأسلوب من قوة حجاجية عالية له القدرة على إيقاظ مشاعر المتلقي وشد انتباه, يكمن ذلك في قوله: فقال له (عليه السلام): [يا يحيى أخبرني عمن صدق كاذبًا على نفسه أو كذب صادقًا على نفسه, أ يكون محقًا مصيبًا أم مبطلًا مخطيًا ؟]

بعدما كان يفترض منه أن يجيب عن أسئلة الخصم، جعل من الخصم صامتًا بادي العجز ظاهر ضعفه ولا يحير جوابًا إلَّا بالسكوت, دلالة على إنهاء المناظر واستسلامه لفحوى المتكلم, يكمن في قوله: (فسكت يحيى، وعندما قيل له اجبه، قال: يعفيني أمير المؤمنين من جوابه), متحولًا من مهاجم كان بظنه يملك كلَّ زمام المبادرة إلى مدافع باحثٍ عن جواب، وبهذا فالمتكلم تمكن من إيصال دعوته إلى المستمع, في الوقت نفسه مفندًا كلَّ الادعاءات الكاذبة التي كان يدعيها الخصم عبر أسلوب القسم حاشدًا معه المؤكدات لغاية تقوية وسائل الحجاج مبينًا ذلك في مقولته (والله + ما رضي لمن فعل مثله + إلَّا القتل) قاطعًا فيه كلَّ الحجج قاهرًا له مستفيدًا من أسلوب القصر, في الوقت نفسه تعميق المعنى وقصر صفة القتل لمثل هذه الفئات, وبهذا يخرج الحوار من طابع المفاخرة إلى طابع التنازع والصدام لإنهاء الموقف (سكت يحيى), لعل الحذق في توظيف الآليات الحجاجية واستغلالها يعد أمرًا مهمًا يتجلى ببراعة مرسل الخطاب, ويمكن أن نرسم المسار الحجاجي الذي أراده الإمام بوساطة تلك الملفوظات كالآتي :

اخبرني عمن صدق كاذبا على نفسه أو كذب صادقا على نفسه ،أيكون محقا مصيبا أم مبطلا مخطئا ؟ مقدمة كبرى ان قلت محقا – المقدمة الصغرى اذن = انت كاذب ولا امانة لكذاب النتيجة غضب الله عليهم وعدم رضوانه ومن ثم يجب قتل كل من فعل فعلتهم.

ب– التناظر الدفعي للأسئلة: وهي الطريقة التي يتم فيها الجمع بين الاسئلة والأجوبة سردًا واحدًا بعد سرد، بعد ذلك يجيب عنها المجيب دفعة واحدة أيضًا, لعلها تنماز عمَّا سبقتها بأنَّها أظهر لمنار الحق؛ وذلك لتوالي الأدلة وتعاضدها بعضًا ببعض[22].

هذا ما لمحناه في مناظرة الشيخ المفيد رحمه الله مع القاضي عبد الجبار في حديث الغدير:

ذات يوم حضر القاضي عبد الجبار مجلس الشيخ المفيد في بغداد،((فقال للقاضي: ان لي سؤالا فإن اجزت بحضور هؤلاء الائمة.

قال له القاضي: سل.

قال ما تقول في هذا الخبر الذي ترويه طائفة من الشيعة : من كنت مولاه فعليٌ مولاه، أهو مسلم صحيح عن النبي ﷺ يوم غدير؟

قال: نعم خبر صحيح.

قال الشيخ: ما المراد بلفظ المولى في الخبر؟

قال: بمعنى اولى، فقال له لما هدا الخلاف بين السنة والشيعة؟

قال: هده رواية وخلافة ابي بكر دراية، والعادل لا يعادل الرواية بالدراية.

فقال الشيخ: ما تقول في قول النبي عليه السلام لعلي عليه السلام حربك حربي وسلمك سلمي؟

قال القاضي: الحديث صحيح، قال فما تقول في حديث الجمل؟ فقال القاضي إنَّهم تابوا. فقال الشيخ: أيها القاضي الحرب دراية والتوبة رواية وانتم قررت في حديث الغدير أن الرواية لا تعارض الدراية فبهت الشيخ القاضي، ولم يحر جواباً, ووضع رأسه ساعة، ثم التفت القاضي إلى المجلس وقال أيها الفضلاء إن هذا الرجل ألزمني وأنا عجزت عن جوابه، فإن كان أحد منكم عنده جواب عمَّا ذكر فليذكر))[23].

إنَّ الدعوى التي أثارها الخصم وهي أنَّ خلافة أبي بكر كانت دراية وإنكار المسلمين لها رواية حمل الشخصية المحاورة الأخرى / الشيخ المفيد على دحضها ، وذلك عبر تكثيف الأسئلة المحتملة لهده الدعوى وانفتاحها على دلالات متنوعة وحصر المعنى المراد منها بهده الاحتمالات ألا وهي إن كان كما ادَّعى أنَّه ليس من العدل الموازنة بين الدراية وبين ما هو رواية, وأن خلافة أبي بكر كانت دراية ومعترضيها كانت رواية أدن ما هو حكم من خالف رسول يكمن في قوله عن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام حربك حربي وسلمك سلمي؟ قال القاضي الحديث صحيح، قال فما تقول في حديث

الجمل ؟ فقال القاضي إنَّهم تابوا. فقال الشيخ أيها القاضي الحرب دراية والتوبة رواية وأنتم قررت في حديث الغدير أن الرواية لا تعارض الدراية] فإن كان كما قلت فأنت باطل, ولا صحة من توبة هؤلاء عن بغضهم لأهل البيت عليهم السلام.

هنا تمكن من إلزامه وإقحامه على الإنصات والتسليم له جعله يسكت ولا يجد جوابًا، لعلَّ هذا ما أشار إليه الدكتور حسين الصديق إلى أنَّ ((المناظرة هي حديث يدور بين اثنين يعتمد فيهِ على قوّةِ الحُجّةِ والإقناع, وليس على جمال الأسلوب وقوّةِ اللّغةِ كما هو الحال في الأنواع الشعّريّةِ))[24]، بمعنى أنَّ كلَّ خطاب استدلالي يقوم على المقابلة والمفاعلة الموجّهةِ يسمّى مناظرة, وهذا ما يفصح عن سمةِ التداوليّةِ للمناظرةِ, والبُعْد الاستدلالي والإقناعيّ لها, إذ تُعرف المناظرة بحجاجيتها؛ وذلك لأنَّها مجال للمباحثة والمباراة في النظر, واستحضار كلِّ ما يراه ببصيرتهِ والنظر البحت, وهذا ما أطلق عليه (غرايس) مبدأ التعاون الذي وصفهُ بـ((أنَّ يتداول المتناظران الحوار وأن يُمهل أحدهما الآخر حَتّى يستوفي مسألته ويفهم عليه قوله))[25] فالمناظر يكشف عن نيّته أمام الطرف الآخر عندما يوجّه خطابه, ويُفصح عن معتقداتهِ الّتي يبتغي من مُناظره أن يشاركه إياها بما يحمله هذا الخطاب من سبلٍ وآليّات مؤثرة يستدل بها لغرض إقناع طرفه الآخر في الحوار إذن المناظرة نمط حجاجي يستلزم الحوار وبهذا يكون الحوار نمطًا حجاجيًا؛ لأنَّ عندما ينتصب الفرد للدفاع عن دعوى يدعيها فلا سبيل أمامه إلَّا الحجاج لها بالأدلة القويمة والمدافعة عنها بالمناظرة الحكيمة نمط حجاجي هذا ما حمل الدكتور طه عبد الرحمن من ربط الحوار بالنموذج الإتصالي للحجاج الذي يشتغل بدور المتكلّم والمستمع معًا في الفعّاليّة الخطابيةِ، فيركّز على علاقةِ التفاعل الخطابي وهذه الفعّاليّة الخطابيّة أو التفاعل الخطابي الذي هو مجال الحجاج يمكن أن تمثّله المناظرة بطبيعتها التداوليّةِ الاستدلاليّة الإقناعيّة والبُعْد الاجتماعي لها[26]. فيكون الحوار هو الإطار الذي يضم السبل الاستدلاليّة والآليّات المؤثرة الموظفّة لإقناع المناظر الآخر في هذا المجال الحجاجي أيّ المناظرة, كما يُعدُّ الحوار

مؤشرًا خطابيًا أساسيًا فيها؛ إذ تتوالى أجزاء المناظرةِ في الحوار فيكون المنشّط لحركتها عن طريق التفاوض للوصول إلى اتفاق إذ لا بدَّ للمناظرة من مآل

2- الضمائر وحضور الذوات:

إنَّ الضمائر في المناظرة ضمائر أشخاص, ممَّا يوحي ذلك إلى تواجد ذوات متفاعلة تعكس لنا رؤاها الفكرية والسياسية والدينة في ثنايا الحوار[27]،ينجم عن ذلك تقاطب بين ضميري المتكلم والمخاطب عاكسًا لنا نوعًا من المسافة بين المشاركين، وعلى خلفية هذا المسافة تنخرط هذه الذوات في المناظرة بوصفها حـوارًا اقناعيًا تتفاوض عن طريقه, إمَّا لتحقيق التقارب بينهما، وإمَّا على العكس من ذلك لتعميق تباعدها، وقد أشار إلى ذلك (ميشال ماير) من أنَّ القضايا المعرفية هي ((مجال لإسقاط اختلافات الأفراد أو تمثـلاتهم))[28]، بناءً عـلى ما طرح فإنَّ توزع الكلام في المناظرة عبر ضمائر ليس مجرد ظاهرة شكلية, إنَّما يعكس لنا توزعًا للمواقف إزاء القضية المطروحة جاعلًا من مناظرته خطابًا حجاجيًا، من ذلك مناظرة السيّد المهدي مع رجلين مصريين في وجوب إتباع أهل البيت (عليهم السلام): ((جاء شابان مصريان عليهما سيماء الصالحين وهما

شافعيان وسلما وقالا: هل أنت إيراني؟

قلت نعم

قالا: هل أنت شيعي جعفري؟

قلت نعم. أنا شيعي جعفري.

قالا: ما الفرق بينا وبينكم؟ وكيف صرتم أنتم شيعة ونحن سنة؟

قلت الفرق بينكم وبيننا في أمرين عظيمين، وهما منشأ لاختلافات كثيرة وهما:

المسألة الأولى: هي الخلافة بعد رسول الله ﷺ فنحن الشيعة نرى أنَّ الخلافة بنص من الله على لسان نبيه وقد نص الرسول على الإمام علي عليه السلام أما أنتم فتقولون إنَّه لم ينص

على أحد وترك للناس الاختيار فأختار أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليًاعليه السلام.... الخ استمر الحوار حول ذلك الأمر))[29].

من المعلوم أنَّ الحجاج وفق ما ذهب إليه (بيرلمان) هو ((لقاء العقول))[30], عن طريقه يسعى كلُّ محاور عبر الضمير المحيل إليه إلى بناء موقفه وإقناع المتلقي بآرائه, أي إنَّ المتحاورين يتقاسمان الكلام، فتوارد الضمائر هنا يؤشر على وجود علاقة تخاطبية, فلا تكون الأنا وحدها بل لا بدَّ من مستمع للخروج من المنولوجية, هذا ما اتضح في المثال أعلاه عندما تواردت ضمائر الجمع (نحن) بدلًا من المفرد (أنت), إذ مثَّل ظهور هذه الضمائر الرؤية العقيدية والخط الفكري الذي يؤمن به المتكلم, ووفق ذلك خرجت المناظرة من مجرد نقاش محدود بين شخصين إلى مواجهة فكرية عقيدة بين تيارات متصارعة، ومثَّل ذلك أيضًا قول الدكتور عبد المنعم في مناظرته مع بعض السلفيين في التوحيد ((ماذا تقولون في صفات الله؟

قال: نحن لا نقول, إنَّما نصفه بما وصف به نفسه في القرآن

قلت: وبماذا وصف نفسه، هل قال إنَّه جسم يتحرَّك ؟ أو إنَّ له يدًا وساقًا وعيينين ؟

قال: نحن نقول بما جاء في القرآن لقد قال الله تعالى: [﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ الفتح :10] وغيرها من الآيات التي تصف الله لنا فنقول: إنَّ الله يدا بلا كيف. قلت إنَّ قولك هذا يستلزم التجسيم، والله ليس بجسم، وهو ليس كمخلوقاته ثم ما الفرق بينكم وبين مشركي مكة، اولئك نحتوا أصنامهم بأيديهم وعبدوها, وأنتم نحتم أصنامًا

بعقولكم, ظلت في أذهانكم تعبدونها لقد جعلتم لله يدًا وساقًا وعينين ومساحة يتحرك فها ((مالكم لا ترجون لله وقارًا)) فالآيات التي ذكرها القرآن مجازية[31].

إنَّ منشأ الخطاب بطرفين ليس غايته مجرد الدخول في علاقة مع الآخر بقدر ما غايته دخوله معه فيها على مقتضى الادعاء والاعتراض، هذا ما يوحي إلينا أنَّ الذي يحدد ماهية الخطاب هو العلاقة الاستدلالية التي يحددها اختلاف الضمائر، كما نلحظه في مناظرة الدكتور عبد المنعم التي دارت مع بعض السلفيين, إذ إنَّها كشفت عن دعوى لهذا السلفي وهي الإشراك باللهِ تعالى, إذ يقول إن تزعموا كذلك فقولكم بمنزلة القول إنَّي شريكٌ للهِ أخلق كخلقهِ مستدلًا بما جاء بهِ من سلوك يحسبه دليلًا ماديًا وحُجّةً ساعيةً مستشهدًا بالنصّ القرآني ظانًا بإمكانية الاحتجاج بهِ، والادعاء يتضح بمقولتهم: لقد قال الله تعالى [يد الله فوق ايديهم] عندما سألوا عن صفات الله تعالى, فما كان المحاور إلاَّ أنْ يُحاججه ومن نَفْس حُجّتهِ، فأمده بالحُجّة الداحضة الهادمة بما يدّعيه, فلم يصمد أمام تصّدي الدكتور له واستدلاله الذي جاء بصيغه الانشاء الطلبي بقوله: [مالكم لا ترجون لله وقارًا إنَّ الله يدا بلا كيف، وهو ليس كمخلوقاته ثم ما الفرق بينكم وبين مشركي مكة، اولئك نحتوا أصنامهم بأيديهم وعبدوها, وأنتم نحتم أصناما بعقولكم ؟]فهذه الصيغة تحمل معنى التلازم بين الحجة والنتيجة، إذ ينتهي هذا الأسلوب بنتيجةٍ حتميةٍ مُلزمةٍ، ومعنى قول الدكتور عبد المنعم لو كان هذا الخالق لكان عارفًا بما خَلَقَ كمًّا وجنسًا، وبذلك يُلزم المحاجج بهذا الأسلوب موظفًا الهدم لهذه الدعوى؛ لأنَّ ((الهدم اقتضاء من اقتضاءات الخطاب الإقناعي الذي تشغله خطابات مناوءة وتنافسه أقوال مخالفة))[32] يستلزم الخطاب الحجاجي بما فيه من ضرورة ترجيح إحدى الدعوتين المتناوئتين، وإثبات أحد الأقوال المتخالفة المتنافسة، فبعد أنْ توقفوا عن الجواب وذلك بانقطاعه وهروبهِ هُدمت دعواه بحُجّتهم, وفي هدم دعوى المحاجِ تعزيز لدعوى المحاجِ وتقوية لحجتهِ، وقد تَم هذا للنص الحجاجي

بفضل وظيفة الهدم التي مهّدت لإقامة البرهان والدليل الذي دحض ما كان من دعوى لطرف الخطاب.

ثانيًا: الخاصية غير المباشرة:

لمَّا كانت المناظرة تتحد بوصفها فعالية حوارية, أساسها التداول حول قضايا خلافية، فإنَّ القول فيها يتوزع ضمن بناء مثنوي، طرفاه مدعٍ ومعترض، أو معتقد ومنتقد، متخذًا الحوار فيه صيغة المواجهـة الاقتناعية المباشرة، إذ تتدخل فيه ذاتان متقابلتان ضمن مشهد تخاطبي فعلي[33], فإنَّ الحوار غـير المباشر يعرض أفكار وآراء المتعارضين دون أن يكون حوارًا مباشرًا قائمًا على السؤال والجواب, من ذلـك قول الذهـبي في رسالته إلى ابن تيمية: ((يا خـيبة من اتبعـك، فإنَّه معرض للزندقة والانحلال، ولاسيما إذا كان قليل العلم والدين، باطنيًا شهوانيًا، فهل اتباعـك إلَّا قعيد خفيف مربوط العقل، أو عامي كذاب بليد الذهن، أو قريب واجم قوي المكر، أو ناشف طالح عديم الفهم ؟ فإن لم تصدقني وزنهم بالعدل))[34].

إنَّ الصيغ التي عرض بها الذهبي رسالته إلى ابن تيمية كانت حوارًا غير مباشر أراد عبرها إيصال رسالة إلى الطرف الآخر, وقد كشف هذا الحوار عن التوزيع بين الضمائر المتكلم / والمخاطب عبر تشكيلة بنائية متصاعدة, لعل هذا يومئ إلى أنَّ العلاقة التخاطبية ليست شيئًا متضمنًا في حبك الكلام فحسب، كما إنَّه لا ينتج بوساطة المتكلم وحده، أو السامع وحده، بل صنع المعنى عملية ديناميكية فعَّالة تقتضي تداول المعنى بين متكلم / وسامع وهذا ما أطلق عليه العالم الفرنسي بـ(انا تواصلي)[35]، هذا من جهة ومن جهة أخرى لم يشأ أن يعرض الذهبي الحجج والبراهين دفاعًا عن دعاويه، فيسمح بهذا للخصم باستزادة الأسئلة واللجاج، لذا عرض المبدأ العام والعقيدة التي تؤمن بها الجماعة الصالحة بعيدًا عن ذاتية المحاور وشخصيته, فهنا تكمن بلاغة الحجاج وذلك عندما يتجاوز المعنى حدود الذاتية الشخصية لينطبع في بُعْدٍ مجتمعي وتيار عقدي مشترك مع المخاطب, فما عرضه المدعي من آراء لإبطال آراء الخصم لم تكن وفق رؤية شخصية قادتها إلى اتخاد

موقف ما، إنَّما مثَّلت رؤية عقيدية جماعية مشتركة، هذا ما جعلها أقرب إلى القبول والاقناع، ويبدو أنَّ إدخال الخصم في ضمن الجماعة العقيدية – أول وهلة – كان من باب استمالته لقبول الحجة، وتوطئةً لإقناعه.

المحور الثاني: أدوار المبادلة الحوارية :

يرى بعض الباحثين أنَّ أدوار الكلام هي: ((ما يحدد واجبات وحقوق المتدخلين أي نظام انتظارات [هما]))[36]. هذا ما جعل مواقف المشاركين تتعاور في أثناء الحوار بين التكلم والإنصات، ولكل مشارك في هذا التفاعل اللفظي الحق في أن يحتفظ بالكلام للحظة معينة ثم يجب عنه, بعد ذلك مَنْح الآخر فرصة في الكلام في لحظة أخرى، وعن طريق هذا التناوب بين ثنائية الارسال والاستقبال يتمظهر الطابع الاشكالي للقضايا المطروحة. فأدوار الكلام ما هي إلَّا تجسيد للصفة الحجاجية للمناظرة, وقد تتوزّع تلك الأدوار في الجنس الخطابي على طرقتين هما:

1– : انتظام التناوب بين المتحاورين:

إنَّ تدبير الحوار في المناظرة يتم عبر تناوب المتدخلين [المتحاورين] على أدوار الكلام، ولو انتقلنا إلى الحجاج نجده هو الآخر نشاط قولي إذا ما تأملناه من زاوية نظر الفاعل المحاجج بمعنى أنَّه يتعلق ببحثٍ مزدوجٍ عن الحقيقة بين ما هو بحثٍ ذي طابع عقلي وما هو تأثيري المتمثل في مقاسمة طرفٍ آخر نوعًا من الكون القولي[37] ،وهذا الذي نسعى إليه في دراستنا، ويتطلب هذا التناوب الاستعمال المستمر لمادة (**قال**) بوصفها خطًا يفصل في كلِّ مرة مداخلة كلِّ طرف في الحوار عن مداخلة الطرف الآخر، يكمن ذلك في مناظرة الشيخ حسين بن عبد الصمد العاملي مع بعض فضلاء حلب:

قلت: عل عندكم نصٌّ من القرآن أو من رسول ﷺ على وجوب اتباع أبي حنيفة*؟

فقال: لا.

فقلت: هل أجمع أهل الإسلام على وجوب اتباعه ؟

فقال: لا.

فقلت: فما سوَّغ لك تقليده ؟

فقال: إنَّه مجتهد وأنا مقلد، والمقلد فرضه أن يقلد مجتهدًا من المجتهدين.

فقلت: فما تقول في جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ؟ هل كان مجتهدًا من المجتهدين؟

فقال: هو فوق الاجتهاد، وفوق الوصف في العلم والتقى والنسب وعظم الشأن، وقد

عدَّ بعض علمائنا من تلاميذه نحو اربعمائة رجل كلهم علماء فضلاء مجتهدون وأبو حنيفة أحدهم[38].

واضح من هذا النص أنَّ الخطاب في المناظرة هنا متوزّع على لحظتين تلفظيتين بينهما علاقة حالية، ولكلٍّ علاقة دور كلامي؛ ذلك لأنَّ هذه الأدوار هي التي تحدد الاختلاف، وتثبت أنَّ المتدخلينِ مشدودانِ ومعنيانِ بما يجري وليس غير آبهين، فعبر تناوبهما تبرز مشاركتهما ومفاوضتهما حول المسافة الفاصلة بينهما، وكلُّ مفاوضة هي استدلال يتوخى الاقناع[39]. وإذ وقفنا عند هذه المناظرة نجد أنَّ عدد الأدوار الذي وصل إليه هذا الشيخ تصل إلى أكثر من أربعين دورًا في مناظرته, فتعدد الأدوار وتناوبها المكثف الذي تتسم به المناظرات مؤشر على تواتر عالٍ في الحوار، زدْ على ذلك أنَّه دلَّ على حرارة المواجهة التي دارت بينهما، ولم يكن هذا التواشج وتصاعد الحوار اعتباطًا, فالخطاب بين طرفين لم يكن مجرد الدخول في علاقة مع الآخر بل

الدخول معه على مقتضى الادعاء والاعتراض، فعبر ثنائية الارسال والاستقبال التي تنظمها أدوار الكلام يتمظهر الطابع الاشكالي للقضايا المطروحة, وذلك لأجل مسوغات دلالية قد تكون انصاف الحق والإذعان إليه، أو تبكيت الخصم وإقراره بأخطائه ... وقد يكون للجمهور دور أيضًا في تصاعد الحوار, وعلى خلفية هذه المسافة تنخرط الذوات في المناظرة بوصفها حوارًا اقناعيًا تتفاوض عن طريقه يتحقق الاقناع.

2- خرق التوزيع المنتظم لأدوار الحوار :

إنَّ ثنائية الإرسال والإستقبال أي تناوب أدوار المتكلمين عملية منجزة بطريقة غير مزينة ومنسجمة في طبيعة العملية الاقناعية للمناظرة؛ ذلك لأنَّ عملية الإقناع وإفحام الآخر التي تحرك كلَّ محاور, يتحتم فيها خرق التوزيع المنتظم لأدوارهم[40]، ويتم الخرق عبر أشكال عدةٍ:

1. الصمت:

إنَّ صمت أحد المناظرين بين دورين كلاميين يعكس عجزه عن مواصلته النقاش في تأمين التسلسل الحواري؛ وله دلالاته الموظفة في النص عبر إشارات صريحة ترد في أثناء الحوار أ عبرة صيغة مضمرة يستشفها السامع أو القارئ، لذا ليس الصمت فرصة لالتقاط النفس فحسب، وإنَّما هو موقف زمني قصدي يخترق كلام الشخصيات المتحاورة وله أثر في توجيه الحوار ومسوغات[41] منها:

أ- إمتصاص ابتدارات المحاور الآخر, وإمَّا لالتقاط النفس لإعادة ترتيب العدة الاقناعية: يمكن التمثيل لذلك في حجاج المأمون في مناظرته مع العامة: ((قال المأمون فانظروا فيما روت أئمتكم الذين أخذتم عنهم أديانكم في فضائل علي عليه السلام ، وقيسوا إليها ما رووا في فضائل تمام العشرة الذين شهدوا لهم بالجنة فإن كانت جزءًا من أجزاء كثيرة فالقول قولكم وإن كانوا قد رأوا في فضائل علي عليه السلام أكثر فخذوا عن أئمتكم ما رووه ولا تعدوه واطرق القوم جميعا فقال المأمون ما لكم سكتم ...))[42].

يعجز بعض المحاورين في أثناء حواره عن مواصلة الحوار إلَّا أنَّ لحظة الصمت هذه لم تكن اعتباطًا؛ إنَّما كناية عن عجز المحاور في إيجاد الجواب المناسب ولقوة الحجة التي جيء بها, لكنَّه لا يريد الاستسلام، فما فصمته إلَّا كناية عن عدم إذعانه لحجج المتكلم, تعنتًا وتكبرًا, وعلى الرغم من قوة الحجَّة المعروضة يصمت؛ لكي لا يقع في دائرة يصعب الخروج منها, فيما وقد تمثل صمتهم كما رأينا بـ(أطرق القوم جميعا).

ب- الرغبة في التنصل من نتائج الاستمرار في الحوار والتهرب من إلزام من حجة الخصم إلَّا أنَّه ليس لديه القدرة على نكرانها, وهذا يعدُّ إلزامًا حجاجيًا ألزم به المحاجج, كما في مناظرة أبي الفوارس مع الوزير يحيى بن هبيرة في إيمان علي بن أبي طالب(عليه السلام) ، إذ قال الوزير عن شعره: ((ما أحسن شعره لو كان صادر عن إيمان ! فقلت والله لاجيبن الجواب قربة إلى الله، فقلت يا مولانا ومن أين لك أنَّه لم يصدر عن إيمان؟ قال: لو كان صادرًا عن إيمان لكان أظهره ولم يخفه. فقلت لو كان أظهره لم يكن للنبي [ص] ناصر، قال فسكت ولم يحر جوابًا ....))[43].

سكوت الوزير يحيى هنا عن الجدال مع أبي الفوارس كشف لنا عن ركاكة حجته وضعفها وقوة حجة الآخر, فكان ملزمًا عليه السكوت والإذعان لما سمع.

ج – التسليم والانقياد لحجة الخصم من غير عناد ومكابرة: نحو مناظرة عمرو بن اذينة مع القاضي عبد الرحمن في وجوب اتباع أمير المؤمنين, إذ قال ((ماذا تقول في قوم كانوا بمفازة من الأرض ومعهم أدلاء فوثبوا عليهم فقتلوا بعضهم ... وهرب واستتر من بقي لخوفهم، ولم يجدوا من يدلهم فتاهوا في تلك المفازة حتى هلكوا ... قال: إلى النار وسكت ثم قال إنا لله وإنا إليه راجعون))[44].

إنَّ المباني المعرفية التي استندت عليها هذه المناظرة في تحقيق بلاغة الإقناع والتأثير في المتلقي هي مبانٍ نفسية اعتمدت على الجانب العاطفي والإدراكي للفرد, في تغير وتعديل سلوكه, نلمح ذلك بالأسئلة التي طُرحت على المفحم بالقضية الذي بادر بها المتكلم مع تكثيف الحجج [ما تقول في قوم كانوا بمفازة من الأرض ومعهم أدلاء،

فقتلوا بعضهم], أي ماذا لأشخاص قد أنعم الله تعالى عليهم في الدنيا عندما جعل معهم حكماء وعلماء لإنارة طريقهم غير أنَّهم قتلوهم فتاهوا في هذه الحياة حتى هلكوا، فلعلَّ المتكلم اختار هذه المنهجية بابًا للولوج لمبتغاه وهو الإقناع وتسليم المفحم وإذعانه له, فتحديد سؤاله وحصر المفحم فيه زد على ذلك اصطحابه لفعل الرأي يكمن في [ما تقول؟]، كلُّ ذلك يوحي إلى أنَّ الاستفهام موقفي يتعلق بإثبات قضية ما, وهي ثبات ولاية علي عليه السلام ، وكلُّ من ادعى غير ذلك وظلمهم مصيره النار، والمفحم هو من حكم على نفسه بذلك بقوله: نعم، فهنا تكمن بلاغة الحجاج عندما اسند المتكلم حجاجه وادعاءاته إلى الوسائل اللغوية؛ لأنَّ اللغة في بنيتها تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة إقناعية[45]،وطبيعة هذا النشاط الاجرائي متغاير في صيغته اللغوية, غايته الأولى والأخيرة التأثير في المتلقي والدفع به إلى تبني موقف ما دون أن يكتسي صيغة الإكراه، فالمنهج المقنن بصفة كلية لهذه العملية البلاغية كونها انتقالًا تنطلق من مبدأ عام هو إرادة المتكلم قيام المتلقي بفعل، أو ترك، ومنتهى أي الإذعان لما ألقي عليه دون الاعتراض, بعد محاورة طويلة دارت بين الطرفين.

2. قطع الكلام:

إنَّ قطع كلام الآخر يؤذي مجاله ويهدد وجهه, هكذا عبر الباحثون عنه, إذ يلجأ أحيانًا المحاورون إلى إرباك أحدهما الآخر, وقطع كلامه, وتضيق فرص استكماله لمداخلته؛ لأجل تحقيق كلٍّ منهما الغرض الذي يصبو إليه من نظم خطابهِ أي تحقيق الهدف الإقناعي[46] لكل منهما, هذا ما عكسته لنا مناظرة الشيخ العاملي مع صارم الوهابي في مشروعية زيارة النبي ﷺ والتوسل به إلى الله تعالى، عندما ادعى الأخير أنَّ التوسل إلى الله بوساطة شرك به, إذ أجابه الشيخ بقوله: ((لماذا يجب الإيمان بالرسول؟ فإذا أردنا أن ننفي الواسطة نقول: إنَّ المطلوب هو الإيمان بالله وحده والرسول مبلِّغ، وقد بلَّغ بذلك وانتهى الأمر, فلماذا نجعل الإيمان به مقرونًا بالإيمان بالله تعالى ؟ لماذا قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[47]، ولم يقل اطيعوني فقط كما بلَّغكم الرسول ﷺ وإذ كان كما تقول لماذا أمر الله تعالى ببناء

غرفة، وقال توجَّهوا إليها, وحجُّوا إليها، وتمسَّحوا بها ؟ هل يفرق عليه في عبادتنا له أن نصلّي له إلى هذه الجهة أو تلك ؟ أو تحج تلك المنطقة أو لا تحج ؟ فلماذا جعلها واسطة بيننا وبينه ؟ بل إنَّ الصلاة أيضًا نوع من التوسُّل وقد يسأل إنسان: هل تحتاج عبادة الله إلى صلاة له، بل الدعاء توسّل, فالله مطلع على الضمائر والحاجات, فلماذا يطلب أن نقول له؟ بل يمكن لهذا التفكير العقلي أن يوصل الإنسان إلى القول: لماذا خلق الله الإنسان بحيث تكون له حاجات، وقال له ادعني حتى استجيب لك ...الخ حيث قال إنَّ مبدأ التوسّل بالنبي أمر ثابت قبل وبعد وفاته لأنَّه حي عند ربِّه))[48].

إنَّ متابعة الشيخ أسئلته قاطعًا عن (صارم) أية إمكانية للجواب مانعًا تدخلاته ما هو إلَّا شطط وتعسف في حق المتلقي / صارم, لذا يرد هذا النوع قليلًا في أحاديثهم, ولعلَّ الشيخ التجأ لهذا النوع من القطع إرادة به طمس عقلية ذلك الشخص من جهة, وعقلية كلِّ من يفكر مثله, والحد من جهلهم، أمَّا الذي يرد عندهم هو قطع الكلام عن محاوريهم متوجهين إلى الجمهور لأشهادهم على صحة دعواهم وإبطال فرضية خصمهم، وذلك عند لجاج الخصم وعناده ومكابرته, فيكون هذا الأسلوب مدعاة إلى التسليم الجمعي وعزل الخصم في بوتقة ضيقة لا يجد معها إلَّا الإذعان والتسليم القهريين, فمن ذلك ما ورد عن الإمام الصادق مع هشام, عندما قطع الحديث وتوجه إلى الجمهور قائلًا: ((يا أهل الشام إنَّ الله أخذ ضغثًا من الحق وضغثًا من الباطل, فمضغهم ثم أخرجهما إلى الناس, ثم بعث أنبياء يفرقون بينهما ففرقها الأنبياء والأوصياء، وبعث الله الأنبياء ليعرفوا ذلك وجعل الأنبياء قبل الأوصياء ليعلم الناس من يفضل الله ومن يختص ولو كان الحق على حده والباطل على حده ما احتاج الناس إلى نبي ولا وصي ولكن الله خلطهما))[49].

سياق الخطاب يكشف عن حكم أهل البيت وأنَّ خلافتهم ما هي إلَّا رسالة سماوية منزهة من الله (عز وجل), يكمن هذا في قول الصادق عليه السلام عندما قال: إنَّ الله خلط الحق بالباطل، وجعل الأنبياء هم المسؤولون عن تفريقهما. فالخطاب يحمل في طياته

دعوى للامتثال بأوامر الرسل والأنبياءعليهم السلام والإقبال عليهم, ويمكن بيان البُعْد الاستدلالي والإقناعي للأسلوب المتبع بما يلي:

- المقدمة الكبرى [الله مزج الحق بالباطل].
- المقدمة الصغرى [لو بقيت الحياة على ما ذكرت اعلاه فقد بقي الإنسان بالجهل والظلام].
- النتيجة [وجوب الأنبياء هام لنقل الناس من الظلام إلى النور ومن الجهل إلى العلم].

3- انشباك الحوار [الكلام]:

وهي إحدى الاستراتيجيات الإقناعية التي يتبعها أحد المحاورين في أثناء محاورته مع الآخر، إذ يتصيد فيها الوقت المناسب للتدخل في كلام الآخر؛ وذلك لبسط ادعائه أو إعلان اعتراضه, فيومئ ذلك إلى نباهته للمفاصل الحساسة في الحوار ووعيه بالسياق واللحظة المناسبين لتحويل القناعات لصالحه(50). يكمن ذلك في مناظرة الدكتور التيجاني مع ابن لبن متعهد الرابطة الإسلامية الذي خطب خطبة بالناس, كان قد كفّر المذهب الشيعي، وهذا م أثار التيجاني أنّ يغتنم الفرصة الفرصة لعرض ادعاءاته وبسط حججه وإحراجه أمام الحاضرين, فيقول: بدأنا الحوار. قلت: قبل كلّ شيء ما رأيك بالشيّعة ؟ أردت بهذا السؤال أن أحرجه أمام الحاضرين الذين وصلوا معه وسمعوا قوله. أراد التخلص من هذا السؤال, ولكنني أصررت أنّ اسمع منه الإجابة فقال: ((نحن نكفّر الشيعة؛ لأنَّهم لا يؤمنون بقرآننا، وعندهم قرآن خاصّ بهم يسمّونه، مصحف فاطمة عليها السلام ضحكت لهذه المعلومات وعرفت قيمة مجادلي وما مبلغه من العلم فقلت: أنت تكفرنا أما نحن فلا نكفرك, إنَّما نقول: بأن الدّعايات الأموية ضللتك, ونطلب من الله أن يهديك إلى الحق، وأنا سوف لن أجادلك في قضايا وهمية ترددونها كالببغاء خلفًا عن السلف دون تحقيق ولا تمحيص, ولكني سوف أجادلك في قضية اعتقد أنَّها من أهم القضايا التي تجمع المسلمين وتنقذهم

من النار ليفوزوا بالجنّة: قال: هات ما عندك فما هي القضية ؟ قلت: قضية أهل البيت عليهم السلام ووجوب الاقتداء بهم لعصمتهم.

قال: لنبدأ بأهل البيت. من هم أهل البيت ؟ أ لست عائشة منهم ؟

قلت: لا لأنَّ عائشة نفسها ما ادعت أنَّها منهم، قال مستغربًا وهو يكلم الحاضرين: أعندكم مصحف قرآن في البيت ؟ قلت: أتريد أن تقرأ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول ... إلى قوله تعالى (إنَّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ...) قال: نعم هذه هي.

قلت: هذه لا تقصد نساء النبي، لأنَّ الله سبحانه وتعالى عندما خاطب النساء خاطبهن بنون النسوة, فقال: لستن....)

نعم هذه للنساء لكن الأخرى لم يكن قاصدًا النساء ولو كان ما تقول لقال: (يذهبن عنكن).

فقال: أبو لبن مستهزئًا: يبدو أنَّك لا تعرف قواعد اللغة العربية، قلت: لماذا علمني، قال نون النسوة تأتي إن كان الخطاب للنساء فقط لكن هنا لم يكن لهن بل كان معهن رجل، قلت: من ؟ قال علي بن أبي طالب عليه السلام.... قلت فهذا يكفيني حجة ودليلًا ثم أخذ يكرر عليه ذات السؤال من كان الرجل: قال لم تكرر ما نقول، قلت لإثبات عصمته))[51].

قد ينشبك الكلام عند نقطة مركزية في الحوار يصل إليها المحاور بعد سلسلة من الأسئلة الاستدراجية ليصل عبرها إلى بؤرة الحجَّة ومركزية الاستدلال, فبعد سلسلة من الأسئلة التي يطرحها ويجيبه الخصم عنها بكلمة مقتضبة (نعم ، لا), هذا ما أراده الدكتور التيجاني عبر هذه الأسئلة بحكم متفرع عليها تتداخل فيه جميع الأسئلة وينشبك بعضها بعض فلا يحير الخصم جوابًا ألا وهو عصمة الإمام عليه السلام التي ينكرونها, غير أنَّ نباهة المحاور, وذكاءه, واستيعابه الواسع لحيثيات المحاورة, وإلمامه بمجرياتها, كلُّ ذلك أوقع الخصم في شباكه فجعله يقر بكلام المحاور الآخر, من دون أن يشعر, وألزمه بذلك الحجّة، أي بمعنى أن هذا النوع يلجأ إليه بعضهم

ليبنوا به عقيدة التي ينبغي أن يكون عليها الطرف الآخر، زد على ذلك فالذي أدى إلى تصاعد التشابك هو تدخل الأطراف الأخرى في الحوار التي لا دخل لها في الموضوع فهم متلقون، عندما دخلوا لترجيح كفة أحد المتحاورين على الطرف الآخر, يكمن ذلك في قول الحاضرين لابن لبن: ((إنَّها حجَّة قاطعة يا أبا لبن، وقام الآخر متوجهًا إليه وهو يضحك: أنا من اليوم سأسميك أبا لهب، لأنَّك تترك قول رسول الله ﷺ وتتبع قول العلماء الذين علموك))[52], أي إنَّه يرى في ثنايا الحوار مدخلًا مناسبًا في بسط دعواهم.

4- الاستبداد بالحوار والإسهاب فيه:

يُعدُّ الاستبداد بالكلام ترجيحًا لكفة أحد المتحاورين وتقويمًا لموقفه[53]، فالسيطرة التي يبديها المحاور على مفاصل الحوار، وهيمنته على مجرياته, والاحتفاظ بالدور الكلامي لأطول مدة ممكنة, يشكل كلُّ ذلك آلية إقناعية تعضد فكرة المحاور[54]،كما في مناظرة الإمام الصادق عليه السلام وبعض أصحابه مع الشامي، إذ امتلكت مداخلاته (عليه السلام) ومن معهم من أصحابه المساحة الأوسع في المناظرة, وكانت أقوالهم الأطول والأكثر تفصيلًا، استطاع بهذه الحظوة الكمية في الكلام أن يتحكم في مجرى المناظرة وفي نتائجها, فهو من يختمها حتى عجز الشامي أن يضاهيهم وخضعه للحجج, وطلب أن يكون أحد شيعته، فيقول: ((روي الكشي* عليه الرحمة عن هشام بن سالم قال: كنّا عند أبي عبد الله عليه السلام فورد رجل من أهل الشام

فستأذن, فأذن له، فلما دخل سلَّم فأمره أبو عبد الله عليه السلام بالجلوس.

ثم قال له: ما حاجتك أيُّها الرجل ؟

قال: بلغني عنك أنَّك عالم بكل ما تسأل عنه فصرت إليك لأناظرك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام في ماذا ؟

قال: في القرآن، وقطعه، وإسكانه, وخفضه, ونصبه, ورفعه.

فقال :عليه السلام يا حمران دونك الرجل.

فقال الرجل, إنَّما أريدك أنت لا حمران.

قال: عليه السلام إن غلبت حمران فقد غلبتني.

فقال له عليه السلام كيف رأيته ؟

قال: رأيته حاذقًا ما سألته عن شيءٍ إلَّا أجابني فيه.

فقال عليه السلام سل الشامي فما تركه يكشر وهكذا فقد طال النقاش فيما بينه فلم يسال شيء إلَّا وأجابه فيه وأخذ الشامي يناظره في كلِّ العلوم (الفقه، الكلام, الاستطاعة، الإمامة، التوحيد), فلم ينتصر في أي واحده منها (فبقي يضحك عليه السلام حتى بدت نواجذه). إلَّا أن قال له الشامي: اجعلني من شيعتك وعلّمني))[55].

ان البناء الفكري لهذه المناظرة يعتروه استبداد احد محاوريه في فتح وإغلاق الحوار متى شاء هكذا اتضح لنا من سيطرة الإمام الصادق عليه السلام ومن معه على أطراف الحديث, إذ إنَّ هذه الأطراف التي استبدت في الكلام أي فتحته هي التي استبدت بإغلاقه، ومن ثَمَّ انتصرت؛ لأنَّها امتلكت كلمة الحسم, فهو المتحكم في أطراف الحوار, إذ هو قادر على تنظيم هجومه بالأسئلة كيفما يشاء وما كان من المجيب الا الخضوع والإذعان لما أبداه السائل في المحاورة؛ وذلك لغياب الدليل يكمن ذلك في العبارات الآتية (فبقي يضحك حتى بدت نواجذه) كلُّ ذلك يوحي بعمق فهم المحاور لمقصد السائل المبطَّن، وتبحره في القضية المطروحة بكلِّ أبعادها، وغلقه منافذ التأويلات المحتملة، إذ إنَّ سؤال الشامي للإمام عليه السلام لم يكن كما هو عليه في الظاهر, وإنَّما أراد أن يقع بالإمام ويبطل قول بعضهم إنَّه عالم بكلِّ الأمور, وهذا ما نستشفه من بداية المناظرة عندما أراد مناظرته وقال عنه: [بلغني أنَّك عالم بكل ما تُسأل فصرت إليك لأناظرك]، وأخذ يتقلب بين العلوم لكن سرعان ما خُذل وانتهى به الأمر إلى إذعانه وخضوعه للمهاجم.

خلاصة القول إنَّ أدوار الكلام في أي حوار تبيّن أنَّ التفاعل مسار دينامي مفتوح على احتمالات وتقلبات عدة، وعن طريق هذا المسار يتحقق البُعْد الحجاجي لهذه الأدوار وخاصيتها الإقناعية.

المحور الثالث: الحجاج في بنية المبادلة :

التفاعل الحواري بين طرفي المناظرة يعكس في جريانه تأرجحًا دائمًا بين قوّتين متناقضتين: قوَّة جاذبة (قوَّة الإغلاق والتضييق)، وقوَّة طاردة (قوَّة المواصلة والتوسيع)، فالأولى تتحقق بحصول الاتفاق والأخرى بالاختلاف والمفاوضة[56].

إذ يرى أحد الباحثين أنَّ الأطراف المتحاورة حينما تكون متفقة لا يبقى هناك ما يقال، ولكن عندما يكون هناك اختلاف فالمناقشة تبقى سارية وممكن،ويقتضي ذلك ضرورة وجود الجماعة لا الواحد (الذات)، وهذا ما يتطلب لضرورة المنازعة لا الموافقة[57], ولعل ذلك من البديهي فالنقاش لا يتم ما لم يكن هناك محاور آخر، فلا نتكلم إلَّا ونحن اثنان أو ثلاث. فعلى وفق ذلك يمكن القول :ان الحجاج يتحقق في أية مبادلة حوراية عبر ظاهرتين:

أ- التوسيع [التوسيع والحجاج]

لا حوار ما لم يكن هناك هدف يكمن بين طرفي الحوار يحكمهما التناقض، كلٌّ منهم حسب مبتغاه وصولًا إلى قناعات وتحقيق الانسجام بين المتحاورين[58]؛ ذلك أنَّ المداخلات تتواتر انطلاقًا من اختلاف المواقف بين المتدخلين، وبما أنَّ القضية موضع التداول دائمًا إشكالية، فلا بدَّ من إستمرار مسافة بينهما؛ وذلك للتقاطب حولها بين مدعٍ ومانع أو العارض والمعترض، أي بمعنى أنَّ الحوار منذور, إمَّا لتذويب هذه المسافة وإمَّا لتعميقها كما في مناظرة الإحسائي* مع الهروي من خرسان إذ بدأت المناظرة بادعاء أصول الدين ومذهبه عندما قال له امامي بدأ الحوار يتصاعد عندما طلب منه الدليل على إمامة علي عليه السلام ،وأخذت الشواهد القرآنية في هذا المنع محلها لتقريب الحالة لمحاوريه حين قال: ((أنت تدعي الإمامة لعلي بلا فصل وأنه هو الرابع بعد الثلاثة قبله وما الدليل ؟ الدليل اجماع الأمة عليه))[59]، فإعترض عليه بنقض دليلهم هذا وإبطال علتهم تلك، فينصب حجة مضادَّة لحجَّتهم بما يمكن أن نسميه [حجة المعارض] بقوله: ((ما الأفضل إجماع الحاصل من كثرة القائل، أو الإجماع الحاصل من أهل الحل والعقد من يوم موت النبي))[60]. بدليل

قولـه تعالى: ولا خلاف فيه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ[سبأ:13] ﴾ ولم تزل الكثرة مذمومة في جميع الأمور حتى في القتال كقوله تعالى : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة :249]﴾ .وهكذا يتصاعد الحوار في كلِّ دور من أدوار ينقض حجَّتهم, متوسلًا في ذلك بالدليل العقلي.

ويبدو التوسيع بالتناقض في صورته الأجلى في مناظرة الأستاذ عبد المنعم السوداني وبعض الشيعة مع بعض السلفية في أمر معاوية ويزيد، فكلُّ حركة حوارية في هذه المناظرة مشحونة بتناقض وشراسة وإختلاف جعلت المناظرة لا تستكين على امتداد أطوارها لأي انسجام ولو مؤقت، والانتقال في الموضات الفرعية جعل من المناظرة تتفرع إلى قضايا فرعية[61] ، بمعنى أن حدّت الإختلاف كان سبب في إتساعها

فبدأ الحوار في اعتراض بعض الحضور على عدم قول: (عبارة رضي الله عنه) بعد ذكر يزيد ومعاوية رادًا عليهم ((هذا ديدن الشيعة يشكون في كل شيء))[62]، في الوقت نفسه أخذ الأستاذ وشيعته يمدحون عليًاعليه السلام : فلا نرى هناك أفضل منه، ممَّا زاد غضبهم, وبعد مشادة كلامية بينهم في ترجيح من الأفضل؟ ((قال بعضهم على كل حال يجب ألا نتأثر بكلام هؤلاء، فإن في حديثهم سحرا يؤثر، ضحكت وقلت: هذا ما قالته قريش للنبي ﷺ عندما جاء بالقرآن))[63]. ثم ينتقل الحوار بعد ذلك إلى واقعة الطف وقضية الحسين عليه السلامعندما سألهـم ما تقولون فيها ؟ لكنهم لم يجيبوا مدعين أنَّ الإمام الحسين عليه السلامخرج على ولي أمر زمانه، ولو كان يزيد قد أخطأ فربَّما يكون قد تاب فلا داعي لأن نتحدث عنه, مجيبًا إيَّاهم بأنَّ قولكم هذا قد ألغى الآيات القرآنية ضاربًا مثلًا لهم بأفعال الطغاة وأعداء الرسالات، التي شهَّرت بقابيل ونـمرود وفرعـون والسامـري، وقولكم هذا بـرّر كلَّ مخطئ, ومن ثَمَّ تعطَّل الدين، ويصبح التاريخ كلُّه بلا فائدة.

إنَّ التوسيع عبر التناقـض الـذي شـهدناه في المناظرة ما هو إلَّا مسار اقناعي قوامه الاستدلال لإثبات وجهة نظر معينة إزاء قضية خلافية، جعل من هذه المناظرة تتفرع وتتسع؛ وذلك لتجسيد الاشتغال المستمر للتناقض في هذا الجنس الحجاجي، يقول

الدكتور طه عبد الرحمن ((إنَّ تعاقب عملية المنع ودفع المنع يؤدي إلى إنشاء متوالية متشعبة تتركب من مناظرات فرعية، كلُّ مناظرة فيها تتولد عن تعرض دعوى ما للمنع))[64].

ب- الإغلاق[الحجاج وإغلاق المبادلة]:

إذا كان موشلر قد رأى أنَّ إغلاق أية مبادلة حوارية يتوقف على تحقيق الإتفاق بين المتحاورين، أيّ توصيلهما إلى نوع من التسوية، التي تجعلهما في وضع مصادقة وانسجام حجاجيين، فإنَّ اعلان نهايتها أي إغلاقها يقتضي بلوغ المتحاورين فيها درجة الاكتمال الحجاجي[65], الذي تجسده وضعيتان إمَّا الزام المانع وإمَّا افحام المدعي, لذا يقول الدكتور عبد الرحمن: ((يجب أن تؤول المناظرة إلى إلزام المانع، يلزم المانع إذ عجز عن متابعة التعرض لدعوى المدعي بإحدى وظائفه مع اعتبار عدم قوله أو فعله لأي شيء يؤدي إلى الانقطاع، ويفحم المدعي, عنده عجزه عن إقامة الدليل على دعوى من دعاوي المعترض عليها مع اعتبار عدم قوله أو فعله لأي شيء يؤدي إلى الانقطاع))[66]. أي إنَّ المناظرة ما هي إلَّا مواجهة اقتناعية على مفاوضة المسافة الفاصلة بين المتدخلين حول موضوع ما، ولكي تكون هادفة لا بدَّ لها من نهاية؛ لأنَّ استمرار العناد يحولها إلى مزايدة عقيمة لا تطور المعرفة كما لا تطور الأطراف المشاركة فيها، وهذا الأمر محال؛ لعدم وفاء طاقة البشرية على ذلك[67].

ووفق دراستنا للمناظرات في الإمامة, اتضح أنَّ إغلاقها كان بوساطة تعبيرات عدَّة ذات صبغة اقتناعية متخذة صيغ عدَّة منها:

1. السكوت: من أمثلة ذلك مناظرة الإمام الرضا عليه السلام مع الوزير يحيى فسكت يحيى، ومنها مناظرة شريك مع المهدي العباسي في إمامة أمير المؤمنين: ((فسكت المهدي وأطرق ولم يمض بعد هذا المجلس))[68]، ومثلها مناظرة الشيخ المفيد مع شيخ من المعتزلة في المأثور عن الأئمة عليهم السلام وخلاف العامّة لهم، فسكت مستحييا مما جرى.

2. الانقطاع: من أمثلة ذلك مناظرة الإمام الباقر مع الحروري التي انتهت بانقطاع الحروري عن الكلام ولم يجد اعتراضًا على ما قاله، ومناظرة مؤمن الطاق مع بعض الحرورية, فانقطع وكأنما اخرس لسانه، ومناظرة امرأة مع ابن الجوزي عندما طلب منهم أن يسألونه إذ قال على المنبر سلوني قبل أن تفقدوني، [عندها سألته امرأة عمَّا روي أن عليًا عليه السلام سار في ليلة إلى سلمان فجهزه ورجع, فقال روي ذلك, ثم قالت: وعثمان تمَّ ثلاثة أيام منبوذا في المزابل وعليٌّ حاضر ؟ قال: نعم، قالت لقد لزم الخطأ لأحدهما. ثم اراد ان يحرجها فقال لها ان كنت خرجت من بيتك بغير اذن فلعنك الله، فقالت له هل عائشة خرجت الى حرب علي بإذن النبي ﷺ أو لا ؟ فانقطع ولم يحر جوابًا][69].

3. افتقاد الجواب: ومن أمثلــة ذلك مناظرة الشريف المرتضى مع علماء الجمهور في الإمامة, عندما أوردوا له أخبارًا موضوعه في فضائل الشيخين: [فقال هي مكذوبة بها على النبي، وقد اعترض عليه بأنه لا احد تجرأ على الكذب عليه فذكر لهم الحديث (ستكثر عليَّ الكذابة) وقال لهم امّا هذا الحديث مكذوب عليه او هو صحيح عنه, ويلزم المطلوب على كلا التقديرين, فأفحموا به عن الجواب. ومنها مناظرة أبي الفوارس مع الوزير يحيى بين هبيرة في إيمان علي بن أبي طالب عليه السلام فتحير الوزير ولم يحر جوابا حتى قام وخرج][70].

النتائج :

المسارات التي يخطها الخطاب في المناظرات لتأدية المعنى متغايرة ، وهذا التغاير محكوم بتعدد الوظائف التي يستدعيها الخطاب القائم على مبدأ التواصل حتي يقع التفاعل الذي يومئ الى تحقيق التأثير في متلقيه ، فيتولد التغاير في الفكر ومن ثم ينعكس على السلوك وبذلك نشهد الإقناع . وقد اثبت البحث مجموعة من النتائج يمكن إجمالها على النحو الآتي:

- بين البحث ان عملية إذعان متلقي النصّ صيغت على وفق فضاءات المستمع .

- لم تكن الحجة في المناظرات سوى كيان مجرد فارغ من المعنى يملؤه المحاج / المؤول بالتصورات والعقائد التي يروم تثبيتها وينوي تحقيق افعالها .
- ان الحجاج نشاط ذهني تأويلي يوظفه المحاج / المؤول لأثبات عقائده وانشاء تصوراته وإقامة عوالمه الممكنة وتسميته حقائقه المزعومة .
- إن الآليات الحجاجية التي توافر للمناظرة خاصيتها الإقناعية ، تجلت في طريقة البناء الحواري يؤشر عليه توزع الضمائر ، وأدوار الكلام وأفعاله ،وتقنيات توسيع الحوار أو إغلاقه فالضمائر الشخصية تحيل بإختلافها على التفاعل الحجاجي في المناظرة أما أدوار المبادلة الحوارية فنستشف عن طريقها تنظيم التناوب بين المتدخلين وعن تقنيات خرقة وبخصوص افعال الكلام أبان البحث عن إستناد المناظرة اساسًا إلى عبارات العرض والحكم كما إنتهى تحليل المناظرات إلى إن توسيع الحوار فيها يتم عبر التناقض ،أما الإغلاق فقد يكون إفحامًا أو إلزامًا.

References :

(1) ينظر: الحجاج والمغالطة، رشيد الراضي: 73.

(2) ينظر: منطق الكلام (من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي), حمو النقاري: 128.

(3) ينظر: لسان العرب،مادة (حور).

(4) الحوار وخصائص التفاعل التواصلي – دراسة تطبيقيّة في اللسانيات التداوليّة: 63.

(5) ينظر: الحوار بين التأصيل والتنظير: 20 – 21، و ينظر: الحوار وخصائص التفاعل التواصلي: 65.

(6) الحوار في القرآن الكريم: 17.

(7) سورة النحل: 125.

(8)ينظر : الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل الى العقل في الحوار : رشيد الراضي : 111–112

(9) *douglas Walton, Informal logic ,p3* نقلا عن مقتطف محور من مقال مطول نشر على صفحات مجلة عالم الفكر الكويتية. ع2/2016م.

(10) ينظر :الحجاج بين النظرية والأسلوب :باتريك ،تر،احمد الوردني :55

(11) ينظر : بلاغة الاقناع :عبد اللطيف عادل: 183

(12) ينظر :م:ن : 184

(13) ينظر :علم الجذل في علم الجدل: 80

(14) مناظرات في الإمامة:36:

(15)نظر : الحجاج بين النظَّريَّة والإسلوب :باتريك شارودو :تر: د.أحمد الودرني :16

* وهو أبو الحسن عبد ربه, يعد أحد كبار رواة الشيعة الامامية الاثني عشرية, ولد عام 80هـ – ت150هـ. ينظر تاريخ زرارة, أبو غالب الزراري: 35.

(16)ينظر : الحجاج والمغالطة :36

(17) مناظرات في الإمامة : 52–53

(18) الكافي في الجدل : 127

(19) ينظر : بلاغة الاقناع: 132

20 ينظر :في ماهية اللغة وفلسفة التأويل :د.سعيد تأويل :59

* يدل على أنَّه من كان شخصه هكذا لا يصح للإمامة لأمرين ،1 – هذه الصفة ليست لمعصوم، ولا يؤمن الغلط على نفسه من يحتاج إلى تقويم لأن الإمام لابد أن يكون معصوما موفقا مسددا ،2 – قول أبي بكر (ان اعوججت فقوموني فإن لي

شيطانًا يعتريني) إن هذه الصفة من لا يملك نفسه ولا يضبط غضبه ومن هو في نهاية الطيش, لا خلاف فيه من أن الإمام منزه من كل هذه الصفات .

(21) مناظرات في الإمامة : 63–64.

(22) ينظر : علم الجذل في علم الجدل: 81

(1) مناظرات في الامامة :125

(24) مناظرة في الأدب العربي الإسلامي: 254

(1)استراتيجيات الخطاب :96

(2)ينظر : في أصول الحوار وتجديد علم الكلام :100

(27) ينظر: بلاغة الاقناع في المناظرات: 185.

(28)بلاغة الإقناع: 185.

(29) مناظرات في الإمامة: 323

(30) نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان :الهاشم بن الحسين: 43.

(31) مناظرات في الإمامة: 440.

(1)الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل :152

(33) ينظر : بلاغة الإقناع, عبد اللطيف عادل: 183.

(34) مناظرات في الإمامة: 632.

(35) المقاربة التداولية: 68.

(36) بلاغة الاقناع :185

(37)ينظر : الحجاج بين النظرية والأسلوب :14

* أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي, ولد في الكوفة سنة (699), وتوفي (80) للهجرة, وهو عالم, وفقيه, وأول الأئمة عند أهل السنة والجماعة, وصاحب المذهب الحنفي في الفقه الإسلامي. ينظر: أبو حنيفة حياته وعصره آراؤه وفقه, الإمام محمد أبو زهرة:14

(38) مناظرات في الإمامة: 151

(39) بلاغة الاقناع: 189.

(40) ينظر : بلاغة الاقناع: 189

(2)ينظر :بلاغة الاقناع :190

(42) مناظرات في الإمامة : 26

(43)مناظرات في الإمامة : 141

(44) مناظرات في الإمامة: 117

(45) الصورة الإشهارية – آليات الإقناع والدلالة، سعيد بنكراد: 187 –188

(46) ينظر :بلاغة الإقناع :191

(47)النساء: 59

(48) ينظر : مناظرات في الإمامة: 286

(49) مناظرات في الإمامة: 61

(50) ينظر : بلاغة الإقناع في المناظرة: 190

(51) مناظرات في الإمامة: 359–360

(52) مناظرات في الإمامة: 365

(2)ينظر : بلاغة الاقناع في المناظرة :193

(54)ينظر الخطاب الحجاجي لأهل البيت : 271

* هو محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بالكشي, لقب بالكشي نسبة إلى كش القريبة من سمرقند، ويعد من أهم علماء الشيعة وصاحب الكتاب المشهور برجال الكشي، ت 350 هـ. ينظر: موقع أهل البيت الالكتروني لشخصيات والاعلام محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي.

(55) ينظر : مناظرات في الإمامة : 60، والمنطق: 347/3

(56) ينظر : بلاغة الاقناع : 195

(57) ينظر م:ن : 194

(58) ينظر : من المنطق إلى الحجاج: 57

* العالم الجليل والحكيم المحقق الشيخ محمد بن الشيخ زين الدين أبو الحسن علي بن حسام الدين إبراهيم بن حسن بن أبي جمهور الهجري الإحسائي، من مؤلفاته: أسرار الحج، الأقطاب الفقهية، كشف الحال عن أحوال الاستدلال, درر اللآلىء العمادية في الأحاديث الفقهية، غوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية ... ينظر : الاقطاب الفقهية في ترجمة المصنف, للشوشتري: 581/1

(59) مناظرات في الإمامة : 600

(60) م:ن :609

(61) ينظر : بلاغة الاقناع : 196

(62) مناظرات في الإمامة :446

(63) مناظرات في الإمامة :448

(64) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام, طه عبد الرحمن : 72–77،ومن الامثلة الاخرى ينظر في : مناظرات في الإمامة: 448–449, أي إنَّ التكوثر القولي الحاصل في المناظرات مرده انبناؤها على التناقض، ومعلوم كما قلنا مسبقا أنَّ التوسيع الحواري يفترض الاختلاف وأي إفراط في التسوية لا يقود إلا إلى الصمت ينظر :التكوثر العقلي :77 .

(65) ينظر : بلاغة الاقناع: 197

(66) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام: طه عبد الرحمن :78

(67) بلاغة الاقناع : 198

(68) ينظر : مناظرات في الإمامة: 62، 118، 132

(69) ينظر : مناظرات في الإمامة : 138،141

(70) ينظر : مناظرات في الإمامة : 110، 142 ، 143 :

- القرآن الكريم
- الاقطاب الفقهية في ترجمة المصنف : محمد بن علي بن إبراهيم الاحسائي ، تح : الشيخ محمد الحسون، ط1، 1989 .
- الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل ،د. علي الشبعان ،دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت ،لبنان ، ط1، 2010م.
- الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل الى العقل في الحوار : رشيد الراضي ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ،ط1، 2010م:
- الحوار في القرآن قواعده واساليبه ،معطياته ،محمد حسين فضل الله :دار الملاك ،بيروت ط1 ،2001 م.
- الحوار وخصائص التفاعلي التواصلي, دراسة تطبيقيّة في اللسانيات التداوليّة: د.محمد نظيف. دار افريقيا الشرق، المغرب (د .ط) ،2001 م.
- بلاغة الإقناع في المناظرة ،د. عبد اللطيف عادل ، منشورات ضفاف ، بيروت ، لبنان ،ط1،2013م
- علم الجذل في علم الجدل ،نجم الدين الطوفي الحنبلي ،(ت716هـ)،تح فولفهارت، فرانز شتاينر ،فيسبادن ،المانيا، د. ط ،1987م.
- مناظرات في الإمامة : تأليف وتحقيق ، عبد الله الحسن ،ط1، 1427هـ– 2006.
- المناظرة في الادب العربي الإسلامي، حسين الصديق ،مكتبة لبنان ناشرون ، الشركة المصرية العالمية للنشر ،لونجمان ،القاهرة ،ط1 ،2000م.

- نظرية الحجاج بنوهاشم : شايم بيرلمان ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط1 ، 2014 م.
- منطق الكلام (من المنطق الجدلي الفلسفي الى المنطق الحجاجي الاصولي) :حمو النقاري ، منشورات الاختلاف ،الجزائر ،دار الامان ،الرباط المغرب ،ط1، 2010م.
- في اصول الحوار وتجديد علم الكلام :طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء ،المغرب ، ط2 ، 2000م.
- الصورة الاشهارية : [اليات الاقناع والدلالة] ، سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي ،ط1، 2009م.
- لسان العرب :ابن منظور (ت711هـ)، تح ، ياسر سليمان ،أبو شادي ، ومجدي فتحي السيّد ، المكتبة التوفيقية ،د.ت .

الرسائل والأطاريح

- الخطاب الحجاجي لأهل البيت(عليهم السلام) في كتاب الإحتجاج –دراسة تداولية– عبد الحسين علي حبيب ،(أطروحة دكتوراه) مقدمة إلى كلية الآداب ،جامعة البصرة ،2017م.